مصادر الدرس البلاغي في التراث اللغوي الجزائري
- شرح منظومة "الجوهر المكنون في صدف الثلاثة فنون" لعبد الرحمن الأخضري نموذجا-

د. حاج هني محمد جامعة - الشلف

ملخص:

يهدف هذا البحث إلى رصد مصادر الدرس البلاغي في التراث اللغوي الجزائري؛ وذلك بكشف أهم المناهل المعرفية التي اعتمدها عبد الرحمن الأخضري في شرح منظومته البلاغية "شرح الجوهر المكنون في صدف الثلاثة فنون"؛ مع تحديد مدى وظيفيتها في تحقيق الغايات التعليمية التي توخاها هذا العالِم من هذا المصنَّف، وكشف أهمية التكامل المعرفي الموجود بين البلاغة العربية والحقول المعرفية المجاورة، سواء أكانت هذه العلوم لغوية أم غير لغوية، في تبسيط مسائل هذا العلم الجليل، وتقديم مفاهيمه للمتعلمين بالاستعانة بشتى الروافد العلمية المتاحة؛ في سبيل تيسير البلاغة العربية.

الكلمات المفتاحية: المصادر- البلاغة العربية- التراث اللغوي الجزائري- الجوهر المكنون- عبد الرحمن الأخضري.

Summary:

This research aims at monitoring the sources of the rhetorical lesson in the Algerian linguistic heritage; by exposing the most important sources of knowledge adopted by Abdurrahman al-Akhdari in the explanation of his rhetorical system of "Charh Aljawhare Almaknoune Fi Sadafi Athalathati Fonoun"; with determining the functionality of those sources in achieving the goals of education envisaged by this scientist from this artwork, and he revealed the importance of cognitive integration between the Arab rhetoric and other neighboring knowledge fields-whether these sciences were linguistic or non-linguistic- in simplifying the issues of this noble science, and presenting its concepts to learners using various available scientific supports; to facilitate the Arab rhetoric.

Keywords: sources- Arab rhetoric- The Algerian linguistic heritage- Al jawhare Al maknoune- Abdurrahman al-Akhdari.

مقدمة:

لم يتوقف البحث البلاغيّ بعد السّكّاكي عند حدود كتابه "مفتاح العلوم"، بل استمرّ في شكل تلخيصات وشروحات، كان لها أثر بارز في إيضاح المسائل البلاغية

وتبسيطها للدّارسين، ويعدّ عبد الرّحمن الأخضريّ واحدا من أبرز العلماء الجزائريّين الّذين اهتمّوا بالبحث البلاغيّ خلال القرن الهجريّ العاشر، إذ كانت له إسهامات جليلة، وجهود لا يُستهان بها في هذا المجال، استعان في ذلك بجملة من المصادر اللغوية القيمة؛ بغية تقديم الدرس البلاغي لطالبيه معزّزا بالشواهد البيّنة، ومدعّما بالأمثلة الواضحة.

1- مصادر الدرس البلاغي:

تشكل المصادر العمود الفقري للدرس البلاغي، فبدونها لا يمكن الوصول إلى خبايا مباحث البلاغة العربية، ولهذا السبب نجد أن عبد الرحمن الأخضري اعتمد في عرضه للدرس البلاغي على جملة من المصادر المتباينة، نهل منها المادة الخام لهذا العلم، كما استعان في عرضه لمسائل وموضوعات هذه العلوم على عدة روافد معرفية من داخل الحقل اللغوي ليطعم بها درسه البلاغي، كما لجأ إلى عدة مصادر علمية من حقول أخرى خارجة عن نطاق البحث اللغوي.

وعلى هذا الأساس فإن توزيع المصادر المعتمدة لدى عبد الرحمن الأخضري ينقسم إلى ثلاث فئات أساسية.

أ- المصادر الأساسية: وهي التي تحمل جوهر الدراسة البلاغية وخلاصتها، وهي في المقام الأول لأنها الأساس الذي اعتمده الأخضري.

ب- المصادر المساعدة: وهي التي تصب في نطاق اللغة عموما، ولكن ليست في صميم البحث البلاغي، بل لها علاقة غير مباشرة مع البلاغة، وتأتي هذه المصادر في المقام الثاني باعتبارها وسائل مساعدة على توضيح مباحث البلاغة ومسائلها.

جـ المصادر الثانوية: وهي مراجع غير ضرورية في الدرس البلاغي، فمكانتها شبيهة بمكانة علم البديع لعلوم البلاغة ، ولكن الأخضري استعان بها على تبسيط مسائل البلاغة العربية لكونها خصوصية من خصوصيات المنهج الذي اعتمده الأخضري.

2- **المصادر الأساسية:**

لقد اعتمد الأخضري في عرضه لمسائل البلاغة العربية على جملة من المصادر الأساسية، اتخذها منابع أصلية لهذا العلم الجليل، وراح يوظف آراء أصحاب هذه المؤلفات في شرحه لمواضيع البلاغة، وهو في ذلك كله يضفي على شرحه مسحة علمية جادة في توظيفه للحصيلة العلمية باعترافه بجهود السابقين في هذا العلم.

ومن جملة المصادر البلاغية التي نالت قسطا وافرا من الاهتمام لدى الأخضري نجد "شرح تلخيص المفتاح" لسعد الدين التفتازاني (ت 791هـ)، يأتي في المرتبة الأولى، و"تلخيص المفتاح" للقزويني (ت739 هـ) في المحل الثاني، وكتاب "مفتاح العلوم" للسكاكي (ت 626 هـ) يوضع في المرتبة الثالثة.

أ- "شرح تلخيص المفتاح "لسعد الدين التفتازاني:

أورده الأخضري في ثمانية عشر (18) موضعا، وهو يعتمده في كثير من الآراء، ولم يعارضه في نقل من النقول، ولم يناقشها بل يوردها بلا خلاف حولها.

أما العوامل التي جعلت شرح التفتازاني يحظى بهذا الاهتمام الكبير لدى الأخضري، فتتمثل فيما يلي:

1- لكون التفتازاني من العلماء البارعين في المنطق والفلسفة والكلام وأصول التفسير والنحو واللغة، وله في ذلك مصنفات مختلفة[1].

2- بسبب شرحه الذي يتضمن آراء عبد القاهر الجرجاني المتوزعة في كتابيه: "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة"، وهذان الكتابان هما أساس علمي البلاغة؛ المعاني والبيان.

3- لأنّ هذا الشرح استعان فيه مؤلفه بعدة مصادر بلاغية هامة مثل "المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير" (ت 637 هـ)، كما ذكر فيه بعض اللغويين من أمثال: المبرّد والزجاجي والجوهري والمرزوقي وابن سينا والزمخشري[2].

4- لكون شرح التفتازاني خير الشروح البلاغية عند المتأخرين، فقد عدوه خير شروح التلخيص[3].

5- لأنّ التفتازاني ألّف هذا الشرح للرد على اعتراضات القزويني على السكاكي، إذا قابل بين الآراء المتباينة ودافع عن السكاكي، واتهم القزويني في قصوره في تحرير كلام البلاغيين السابقين، وبخاصة كلام عبد القاهر الجرجاني، ومن ثم اكتسب شرحه شهرة واسعة.

وهذه العوامل مجتمعة جعلت شرح التفتازاني ينال قدرا أكبر لدى الأخضري، لأنه تضمن خلاصة الدرس البلاغي كما حدده البلاغيون العرب.

ويمكن معرفة المسائل التي استعان فيها الأخضري بشرح التفتازاني من خلال هذا الجدول:

القسم	المسألة محل الاستشهاد	المجموع
التمهيد	(ال) التعريفية يقصد بها الاستغراق	1
معنى البلاغة	بعض الآيات أعلى طبقة من بعض في البلاغة	1
علم المعاني	أغراض تعريف المسند إليه بالعلمية	14
	تساوي الموصول والمعرف بـ (ال) في الرتبة	
	أغراض تعريف المسند إليه بالإشارة	
	تعريف المسند إليه بـ (ال)	
	اللام في اسم الفاعل واسم المفعول موصول لا حرف تعريف	
	العطف على المسند إليه	
	أغراض تقديم المسند إليه	
	الالتفات	
	إفراد المسند	
	تقييد المسند بأداة الشرط	
	وقوع المسند جملة	
	متعلقات الفعل	
	متعلقات الفعل	
	قصر التعيين	
علم البديع	تعريف علم البديع	2
	جناس الإشارة	

ومما سبق يمكن تسجيل الملاحظات التالية:

1- كثرة الاستشهاد بآراء التفتازاني في مسائل علم المعاني، وذلك لارتباط النحو بهذا العلم، وتم اللجوء إلى شرح التفتازاني؛ لأنّه عالم لغوي ونحوي بارع استلهم الأخضري من مصنّفاته المسائل المتعلقة بهذا الفن.
2- وجود استشهادين فقط في علم البديع، يوحي بثبات مسائل هذا العلم واستقرارها لدى القدامى والمتأخرين.
3- عدم استشهاد الأخضري بآراء التفتازاني في علم البيان، يوحي باكتمال مسائل هذا العلم عند القدامى، وكل من جاء من المتأخرين سار وفق امنهج الذي رسمه عبد القاهر الجرجاني في كتابه "أسرار البلاغة"، ولهذا السبب لم يضف البلاغيون بعد الجرجاني أية إضافة هامة في هذا العلم، اللهم بعض الجزئيات التي طعموا بها مسائل البيان.

وهكذا يمكن القول أنّ "شرح تلخيص المفتاح" يعد أهم مصدر بلاغي اعتمده الأخضري في عرض مباحث البلاغة، ومعالجة مسائلها.

ب- تلخيص المفتاح "للقزويني":

جاء في المرتبة الثانية بعد شرح التفتازاني، أورده الأخضري في أربعة عشر (14) موضعا، ويبدو أنه التزم التزاما؛ "فالأخضري في جل شرحه يتماشى مع ترتيب القزويني"[4]؛ وهذا ما يصرح به في مقدمة منظومته:

مُلْتَقِطًا مِنْ دُرَرَ التَّلْخِيصِ جَوَاهِرَ بَدِيعَةِ التَّأْخِيصِ
سَلَكْتُ مَا أَبْدَى مِنَ التَّرْتِيبِ وَمَا أَلَوْتُ الجُهْدَ فِي التَّهْذِيبِ[5]

ولقد اعتمد الأخضري على "تلخيص المفتاح" للقزويني للاعتبارات التالية:

1- كون التلخيصات من المؤلفات البلاغية التي نالت الشهرة، ولقيت إقبال الناس في عصره إلى يومنا[6]، وهذا ما دعا الأخضري إلى اتخاذه مصدرا بلاغيا في شرحه للجوهر المكنون.
2- لأنّ هذا التلخيص استوعب كل مسائل البلاغة في قالب منظّم وواضح، معزّز بشواهد غزيرة، ومصطلحات دقيقة.

ويمكن إيراد المسائل التي انتقاها الأخضري من "تلخيص المفتاح" فيما يلي:

القسم	المسألة محل الاستشهاد	المجموع
علم المعاني	تقديم الاسم الموصول على اسم الإشارة في تعريف المسند إليه	5
	العطف على المسند إليه	
	تقديم المسند إليه لغرض الاهتمام	
	تخصيص المسند إليه	
	قصر التعيين	
علم البيان	الاستعارة التخييلية والاستعارة بالكناية	1
	الموافقة وهي عند القزويني مراعاة النظير	8
	المقابلة ضمن المطابقة	

علم البديع	التقسيم	
	عدد المحسنات اللفظية	
	الجناس وهو التجنيس عند القزويني	
	التدبيج	
	الائتلاف	
	التجريد	

ومما سلف يمكن تسجيل:

1- كثرة الاستشهاد بآراء القزويني في علم البديع؛ وذلك لأنّ القزويني خالف المتقدمين في المصطلح البلاغي، ولذا فالأخضري يورد المصطلحات البلاغية بتعاريفها المتعددة عند البلاغيين القدامى، ويركز على تعريف القزويني تحديدا.

2- تأتي شواهد علم المعاني في الرتبة الثانية؛ لأنّ القزويني ناقش السكاكي في مسائل هذا العلم، وردّ عليها باعتماد آراء عبد القاهر الجرجاني، وفي ذلك يقول: "إلى ما خلا عنه المفتاح من كلام الشيخ الإمام عبد القاهر الجرجاني رحمه الله في كتابيه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة".[7]

3- تحتل شواهد علم البيان المرتبة الثالثة، وورد فيها استشهاد واحد، وذلك لكون مسائل هذا العلم محل اتفاق بين القدامى والمحدثين.

وهكذا نجد أنّ الأخضري قد أدرك قيمة "تلخيص المفتاح"، ولهذا السبب جعله في المرتبة الثانية من حيث المصادر البلاغية المعتمدة.

ج- "مفتاح العلوم" للسكاكي:

احتل هذا المصدر المرتبة الثالثة بعد شرح التفتازاني، وتلخيص المفتاح على التوالي، وقد أشار إليه الأخضري في عشرة (10) مواضع، على الرغم من أنّ "مفتاح العلوم "أصل جميع التلخيصات والشروح البلاغية، ولعل السبب الذي جعل "مفتاح العلوم" يأتي في آخر مرتبة من ترتيب المصادر الأساسية في هذا الشرح يكمن شهرة "تلخيص المفتاح" للقزويني التي غطت الجهود البلاغية التي بذلها السكاكي، وأضحى تلخيص المفتاح واسع الانتشار لدى الدارسين، واختفى عقب ذلك أصل هذا التلخيص، نظرا لعدة عوامل: أهمها: صعوبة المنهج، وغموض العرض، وتعقيد المصطلح.

ويمكن توضيح المسائل البلاغية التي استعان فيها الأخضري بكتاب "مفتاح العلوم" للسكاكي فيما يلي:

القسم	المسألة محل الاستشهاد	المجموع
علم المعاني	متعلقات الفعل	3
	قصر التعيين	
	مواضع الوصل	
علم البيان	مفهوم الاستعارة	2
	الاستعارة المكنية و التخييلية	

علم البديع	المبالغة	5
	الترديد	
	التلويح	
	التعريض	
	الإيماء	

ومن هذا الجدول يمكن تسجيل الملاحظات التالية:

1- كثرة الاستشهادات الموجودة في الشرح تنتمي إلي علم البديع؛ لكون هذا العلم توسع فيه المتأخرون توسّعا بعد السكاكي، وهذا الأخير يقول في خاتمة علم البديع: "فلك أن تستخرج من هذا القبيل ما شئت وتقلب كلا من ذلك بما أحببت"[8]، وهذا ما يتجلى في مصنّف الأخضري حينما استطرد في تبسيط مسائل علم البديع.

2- جاءت الشواهد في علم المعاني ثانية؛ لأنّ الأخضري طعّم هذا الشرح بآراء السكاكي في هذا العلم، لكون مفتاحه يعد خلاصة بلاغية ضمت أهم الاجتهادات البلاغيية للسابقين.

3- احتلت شواهد علم البيان المرتبة الثالثة عند الأخضري، وهو بذلك يسير وفق نفس المنهج كما رأينا عند التفتازاني والقزويني، ولكن نجد شواهد المفتاح أكثر من سابقيه؛ لأنّ السكاكي في مفتاحه هو الموضح لمسائل البلاغة، والمحدّد لمباحثها، والمعرّف لمصطلحاتها.

ومما سبق يمكن القول أنّ الأخضري اعتمد بدرجة كبيرة على هذه المصادر البلاغية الثلاثة، والتي رأى فيها مادة أساسية استغلها في تبسيط شرحه، وتقريبه للطلبة، لأنها ميسورة المادة، واضحة المنهج، وجاء ترتيبها من الأسهل (وهو شرح التلخيص)، إلى السهل (وهو تلخيص المفتاح)، وأخيرا الصعب نوعا ما (وهو مفتاح العلوم)، وجاءت هذا الترتيب هكذا؛ لأنّ الأخضري يهدف إلى تبسيط مسائل البلاغة للدارسين والطلبة.

و هنا يمكن أن نتساءل عن سر إقصاء الأخضري لأهم مصدرين بلاغيين في التراث العربي، ألا وهما كتابا "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" لعبد القاهر الجرجاني، من جملة المصادر البلاغية المعتمدة.

ولعل الإجابة عن هذا التساؤل تكمن في كون المصادر التي عاد إليها تتضمن آراء عبد القاهر الجرجاني البلاغية؛ "فالسكاكي وضع قواعد البلاغة بعد أن رجع إلى أصولها، واستخرج من تجارب العلماء السابقين والعصور السالفة نتائج صحيحة دون أن يسمح للهوى بالتدخل فيها أو الخروج عنها، فجمع الحجج والبراهين، وحصر الأصول والقوانين، ثم رتّب القواعد والشواهد[9]"، أمّا القزويني فقد دوت شهرته نتيجة تلخيصه الدقيق الواضح، إذ "عكف على كتابي عبد القاهر:"دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة"، وكتاب "الكشّاف" للزمخشري مستنيرا بها جميعا في تصنيف تلخيصه"[10]، ناهيك عن أنّ التفتازاني لا تقل مكانته عن السكاكي والقزويني، إذ "عدّ القدماء هذا الشرح خير شروح التلخيص، وعنى كثيرون بوضع حواش عليه"[11].

و إذا كان الأخضري قد اعتمد في شرحه للجوهر المكنون على المؤلفات البلاغية الثلاثة السالفة الذكر بدرجة كبيرة، فإن هذا لم يمنعه من الاستعانة بأمهات الكتب في علم البلاغة العربي، باعتبارها المنابع الأصيلة لهذا العلم، فهو يلجأ إليها من حين لآخر، وينهل منها ما يتناسب مع أغراض شرحه، ويمكن إجمال المصادر البلاغية المساعدة التي اعتمدها الأخضري فيما يلي:

	المصدر البلاغي	الموضوع	المجموع
التمهيد	أدب الكاتب لابن قتيبة	الإمالة في اسم الجلالة	3
	الكشّاف للزمخشري	تفسير سورة الفاتحة	
	نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للرازي	حركة اللفظ ودلالتها على المعنى	
علم المعاني	إعجاز القرآن للباقلاني	أغراض الخبر	04
	البيان والتبيين للجاحظ	الصدق والكذب في الخبر	
	دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني	قصر المسند على المسند إليه	
	أسرار البلاغة	فصل المسند إليه	
علم البديع	مجاز القرآن لأبي عبيدة بن المثنى	التوشيح	04
	إعجاز القرآن للباقلاني	السجع	
	الصناعتين لأبي هلال العسكري	التطريز	
	المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير	السجع والفواصل القرآنية	

ومن الجدول التالي نستنتج أنّ الأخضري استعان بهذه المصادر البلاغية، التي تعد أمهات الكتب في هذا العلم، وما تعددها إلاّ إثراء للبحث البلاغي عند الأخضري، فهو لا ينقل من هذه المصادر اعتباطا، وإنما ينقل في صورة فكرة يحاول أن يبرزها مستعيناً بالمصادر المتنوعة.

كما أنّ هذه الكثرة من المؤلفات البلاغية تدل على غزارة علم الأخضري، فقد استطاع أن يأخذ منها، ويقتبس منها نصوصاً ساعدته على إيجاز الشرح في هذا المستوى الرائع من تلاحم الموضوعات وتناسقها.

3- المصادر المساعدة:

استعان الأخضري في شرحه للجوهر المكنون بعدة مصادر لغوية لها صلة مباشرة بعلم البلاغة، وذلك لوجود ارتباط وثيق بين علم البلاغة وسائر العلوم اللغوية، ومن جملة العلوم اللغوية المساعدة في الدرس البلاغي، نجد النحو والصرف، والمعجم، والشعر، والنثر، إذ تشكل هذه الأخيرة روافد مغذية للبحث البلاغي العربي، ولهذا السبب نجد الأخضري يلجأ إلى هذه الحقول اللغوية لينهل منها المادة التي يطعّم بها درسه البلاغي، فهو بذلك يوظّف آراء النحويين والشعراء والأدباء في هذا الشرح.

ويبدو أنّ علم النحو قد حظي بنصيب وافر في شرح الأخضري لمنظومته البلاغية، إذ نجده قد نقل لنا تسعة عشر (19) رأيا نحويا يتعلق بمباحث البلاغة، ولاسيما تلك التي تتناول علم المعاني، وذلك لصلتها الوثيقة بالنحو، فقد دعّم الأخضري شرحه بآراء النحويين واجتهاداتهم، ووزّعها على كافة فصول الشرح، فنجده في التمهيد يورد

آراء سيبويه المتضمنة في الكتاب حول اسم الجلالة والخلاف الدائر بين النحاة في كونه علما أم لا، وهو مذهب الخليل وسيبويه حسب الأخضري، كما تحدّث عن افتتاحيات المنظومات النحوية، التي تنوعت بين البداية بالحمد لله كما في الألفية، إذ يقول ابن مالك (ت 672 هـ):

قَالَ (مُحَمَّدٌ) هُوَ ابْنُ مَالِكٍ أَحْمَدُ رَبِي اللهَ خَيْرُ مَالِكٍ[12]

والأخضري سار على نهج القدامى، إذ افتتح منظومته بحمد الله[13] اقتداء بالنحاة الأوائل أمثال: ابن مالك وابن الحاجب (ت 686 هـ).

و بخصوص المقدمة التي خصّصها الأخضري لتعريف مفهومي الفصاحة والبلاغة، نجده قد استعان بآراء ابن جنّي والأخفش الأوسط (ت 215هـ) في توضيح شروط فصاحة الكلام، وذلك في معرض حديثه عن ضعف التأليف نتيجة مخالفة القانون النحوي، والأخضري في هذه الحالة يعتمد على كتابي الخصائص لابن جنّي، ومعاني القرآن للأخفش الأوسط.

وحين تعرض الأخضري إلى مسائل علم المعاني، أدرج فيها سبعة وعشرين (27) مصدرا نحويا؛ وذلك للعلاقة الوثيقة بين النحو وعلم المعاني، ومن هذه المصادر نذكر: ألفية ابن مالك في النحو، فالأخضري كان كثير الاستشهاد بها في أبواب مختلفة، مثل: تعريف المسند إليه باسم الإشارة، وفي بيان حاله في القرب والبعد والتوسط، وفي مواضع القصر.

كما استعان الأخضري أيضا بمؤلفات ابن هشام النحوي (ت 761 هـ)، ولاسيما "مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب "الذي وظفه في موضوعات القصر والإنشاء، وإعراب أسماء الاستفهام، كما في قوله:"علمت زيد من هو؟ جاز رفع زيد لأنّه نفس من في المعنى. نص عليه ابن هشام"[14].

ونجد الأخضري يعتمد على "الجنى الداني في حروف المعاني" للمرادي (ت749 هـ) حينما يعرب الحروف، ومن ذلك إعرابه لـ (الـ) التعريف على أنها حرف موصول اعتمادا على رأي المرادي[15]، ولقد بلغت الآراء النحوية المبثوثة في الشرح ثمانية وثلاثين (38) رأيا، يمكن إيراد توزيعها حسب هذه الأقسام:

أقسام الشرح	المصادر النحوية	مجموع الآراء
التمهيد	الكتاب لسيبويه الألفية لابن مالك الكافية لابن الحاجب	6
المقدمة	الخصائص لابن جنّي معاني القرآن للأخفش	2
	الكتاب لسيبويه الألفية لابن مالك الجنى الداني للمرادي	28

علم المعاني	مغني اللبيب لابن هشام معاني القرآن للفراء حديث الصفّار للصفّار الإيضاح في النحو لابن فارس مختصر النحو للكسائي الأمالي في النحو والأدب لعبد الوارث	
علم البيان	شرح أبيات سيبويه للزّجّاج	01
علم البديع	الخصائص لابن جني	01
المجموع	19	38

ومما سبق نستنتج الحضور القوي للمصادر النحوية في علمي البيان والمعاني، وذلك بنسبة تزيد على (73%)، وهذا ما يفسر الترابط بين مباحث العلمين، فمباحث علم المعاني أدخل في علم النحو[16].

أما الأقسام الأخرى للشرح فكانت المصادر النحوية فيها ضئيلة جدا؛ نظرا لعدم حاجة الأخضري إلى إيراد آراء النحاة في هذه الأقسام؛ بسبب استقلاليتها عن علم النحو، وما جاء فيها كان يقصد الإيضاح والتبسيط فقط، ولكن بالمقابل اعتمد الأخضري في مقدمة شرحه على آراء النحاة لتوضيح منهجه، وأسلوبه في هذا الشرح.

ومما سلف نسجل غزارة المصادر النحوية في شرح الأخضري وتنوعها، مما يوحي باطلاعه الواسع وثقافته النحوية العالية، ولكن تجدر الإشارة إلى أنّ اعتماد الأخضري على المنظومات والشروح النحوية بصورة واضحة، ولعل ذلك راجع لظروف العصر، إذ ذاعت المنظومات والشروح، وتخلى الدارسون عن أمهات الكتب، كما أنّ هذه الكتب كانت أكثر رواجا، وأوسع انتشارا في زمانه ، مثل الألفية، والتي وظّفها خمس (5) مرات، ومغني اللبيب الذي استعان به مرتين، وابن الحاجب الذي أورد آراءه ثلاث (3) مرات.

كما نجد الأخضري قد اعتمد في شرحه على المصادر اللغوية والمعجمية، وذلك عندما شرح المصطلحات اللغوية والبلاغية بالرجوع إلى المعاجم اللغوية مثل: "الصحاح" للجوهري، و"المحكم" لابن سيدة (ت 458هـ)، و"الجمهرة" لابن دريد (ت 321 هـ)، ونلمس ذلك في تعريفه لسجع الشطر، إذ يقول الأخضري: "والشطر ضبطه الجوهري وصاحب المعجم بفتح الشين"[17]، والأخضري يعتمد أحيانا على نفسه في تحديد المصطلحات البلاغية، ولكن ما في هذا الشرح يتفق مع ما في "لسان العرب" لابن منظور (ت 711هـ)، وما في "القاموس المحيط" للفيروزبادي (ت 817 هـ)، مما يدل على اعتماده المباشر على هذه المناهل الأصلية للغة العربية، ويتجلى ذلك في إيراده لمعاني المصطلحات البلاغية في الوضع اللغوي أولا، مثل مفهوم الفصاحة، والبلاغة، والبيان، والبديع، والاستعارة، إذ يحدد المعنى اللغوي لكل من هذه المصطلحات قبل المفهوم المصطلحي عند أهل الاختصاص.

وإذا بحثنا عن المصادر الأدبية في شرح الأخضري وجدناها تتمثل في شرح الحماسة للمرزوقي (ت 421 هـ)، والمقامات للحريري (ت 516هـ) التي اعتمدها في أربعة مواضع، في علم البديع في السجع، والتوشيح، والاقتباس، والتلميح.[18]

أما المصادر الشعرية فنجدها متنوعة في هذا الشرح، إذ اعتمد الأخضري على كنوز التراث الشعري العربي متبعا في ذلك جهود السابقين في البحث البلاغي، فهو ينهل من شعر امرئ القيس، والفرزدق، والمتنبي، والنابغة، وبشار بن برد، للاستشهاد في المسائل البلاغية، كما طعّم شرحه بشعر المديح النبوي، ومن ذلك "بردة للبوصيري" التي ذكرها ثلاث مرات في الشرح، إضافة إلى "لامية الشقراطيسي" في مدح النبي ﷺ، التي استشهد بها في باب التحلية إذ يقول الأخضري: "كقول الشقراطيسي:أَهْدِي بِأَحْمَدَ مِنَّا أَحْمَدَ السُّبُلِ"[19].

ولعل اعتماد الأخضري على قصائد المديح النبوي، واعتبارها مرجعا بلاغيا راجع إلى ثقافته الواسعة، واطلاعه على قصائد المديح التي كانت تُدرّس لطلبة الزوايا والمعاهد الدينية آنذاك، بالإضافة إلى سعة انتشار هذا النوع من الشعر بين الدارسين، وما المكانة التي لقيتها بردة البوصيري إلا خير دليل على ذلك.

ولم يكتف الأخضري بالمصادر الشعرية التراثية، بل دعم شرحه بشعره الخاص، ويتجسد ذلك بصورة واضحة في عدة مواضع من هذا الشرح؛ ففي أغراض ذكر المسند إليه لشدة الشوق إلى مسماه استشهد بأرجوزته في مدح النبي ﷺ ، وفي ذلك يقول:

مُحَمَّدٌ أَجَلُّ مَنْ أَهْوَاهُ مُحَمَّدٌ شُغِفْتُ مِنْ ذِكْرَاهُ
مُحَمّدٌ يَا فَوْزَ مَنْ رَآهُ مُحَمّدٌ أَفْلَحَ مَنْ أَتَاهُ
مُحَمّدٌ يَا لَيْتَنِي أَلْقَاهُ مُحَمَّدٌ مُحِبُّهُ بُشْرَاهُ
مُحَمّدٌ سَيِّدُ مَنْ سِوَاهُ مُحَمَّدٌ صَلَّى عَلَيْهِ اللهُ[20]

وأشار إلى قصيدته "التائية" في شرحه لمسألة التضمين بقوله: "كقولنا في القصيدة التائية في مدحه عليه السلام:[21]

سَرَى طَيْفُ مَنْ أَهْوَى فَأَرَّقَ مُهْجَتِي[22]

مأخوذ من قول البوصيري:

نَعَمْ سَرَي طَيْفُ مَنْ أَهْوَى فَأَرَّقَنِي وَالحُبُّ يَعْتَرِضُ اللَّذَاتِ بِالأَلَمِ"[23]

كما وظف قصيدته "القدسية" في شرحه للاقتباس، إذ يقول:"رمية قولنا في القدسية[24]

"إنه بالواد المقدس طوى"[25] ".[26]

ومما سبق يبدو أنّ الأخضري حاول توظيف قصائده في إثراء الدرس البلاغي، فهو لم يتوقف عند حدود المصادر المتداولة القديمة، بل نهل من قصائد المديح، وأدخل نصوصا من قصائده الخاصة، وفي ذلك دليل على التنوع والتجديد لدى الأخضري في عرض مسائل البلاغة.

وما يمكن قوله بخصوص المصادر المساعدة التي لجأ إليها الأخضري في درسه البلاغي، يمكن القول أنها اتسمت بالثراء والغنى والتشعب في مختلف حقول الدرس اللغوي، فكل المصادر التي سبق ذكرها كانت ملمحا من ملامح التيسير والتبسيط لدى الأخضري من جهة، كما يدل توظيفها على ثقافة الأخضري الموسوعية من جهة أخرى، ولهذا استطاع أن يسبر أغوار الدرس البلاغي معتمدا في ذلك الأدوات الإجرائية اللازمة التي تفي بالغرض الذي يهدف إليه، وهكذا أنتج لنا شرحا قيما غنيا بالمصادر والشواهد.

4- المصادر الثانوية:

يحتاج علم البلاغة إلى عدة مصادر ثانوية خارج الحقل اللغوي، وهذا لوجود التقارب بين سائر العلوم الإنسانية من جهة، ولحاجة البلاغة للعلوم الأخرى في توضيح مسائلها وتحديد مصطلحاتها؛ ولهذا نجد البلاغة ارتبطت عند البلاغيين القدامى بالعلوم الدينية وعلم المنطق، واستمر هذا التداخل عند المتأخرين منهم، فالأخضري في شرحه يعتمد على عدة مصادر- حتى وإن لم يتعرض للإشارة إلى عناوينها- تعلقت معظمها بعلوم مختلفة لها صلة وثيقة بعلوم البلاغة.

وتحتل العلوم الدينية حظا وافرا لدى الأخضري في درسه البلاغي، إذ نجده يعتمد على متن الورقات للجويني، والمستصفى للغزالي، وقد بث مسائل منها في كامل فروع الشرح.

كما استعان بسيرة ابن هشام حينما يتعلق الأمر بإيراد الشواهد البلاغية من الحديث النبوي الشريف، والتي بلغت ثمانية عشر (18) شاهدا، إذ استثمر هذه الأحاديث في عرض مسائل البلاغة ضمن علومها الثلاثة، ونجد الأخضري يوظف "متن الجزرية" لابن الجزري في القراءات والتجويد من حين لآخر.

أمّا بخصوص علم المنطق فنجد الأخضري يعتمد اعتمادا مباشرا على "السلم المرونق في علم المنطق"؛ إذ نراه يورد مسائل تعد من صميم هذا العلم في عدة موضوعات ويتجلى ذلك بوضوح في الباب الأول من علم المعاني أثناء حديثه عن الإسناد الخبري وأحواله، واستطراده في بيان الفرق بين المفهوم والمصدوق، إذ المفهوم هو ما يتعلق بمفرد كالإنسان، أما المصدوق فهو ما تعلق بإدراك لوقوع شبه المركب أو عدم وقوعها[27]، وفي ذلك يقول الأخضري في متن السلم:

إِدْرَاكُ مُفْرَدٍ بِصُورَةٍ عُلِم وَدَرْكُ سَبَبِهِ بِتَصْدِيقٍ وُسِم[28]

كما نجده أيضا يوظف مسائل المنطق في حديثه عن تقديم المسند إليه لغرض تخصيصه أو إفادته عموم السلف، وفي ذلك الجزئية باعتماده على متن السلم، وتوسع بشيئ من التفصيل في بيان اختلاف المناطقة والنحاة في مفهوم الشرطية أثناء حديثه عن تقييد المسند بالشرط، وفي ذلك يقول: "واعلم أنّ اعتبار المناطقة في مفهوم الشرطية، مخالف لاعتبار النحاة، فإذا قيل: إن كانت الشمس طالعة فالنهار موجود، فعند النحاة المحكوم عليه النهار والمحكوم به موجود، والشرط قيد له ... وعند المناطقة المحكوم عليه الشرط والمحكوم به الجزاء".[29]

وإذا انتقلنا إلى فصل الدلالة الوضعية نجده أقرب إلى علم المنطق منه إلى علم البلاغة، ولذلك لانتقال هذا الفصل من علم المنطق إلى علم البلاغة عند المتأخرين.[30]

وهكذا يتجلى تأثير مباحث علم المنطق في مسائل البلاغة، عند الأخضري، ولعل سبب ذلك هو الشهرة الواسعة للأخضري في علم المنطق، وما "السلم المرونق" إلا خير دليل على ما بلغه الأخضري في هذا العلم، وبالتالي تداخلت العلوم البلاغية بمباحث المنطق لدى الأخضري، فالمنطق يحتاج إليه كل علم ليقيم دعائمه ويحدد مباحثه، ولهذا فليس غريبا أن نجد الأخضري يوظف سلمه في المنطق في عرض مسائل البلاغة ضمن شرح الجوهر المكنون.

ومن المصادر التي أخذت حيزا واضحا لدى الدرس البلاغي عند الأخضري نجد موضوعات التصوف حاضرة في شرح الجوهر المكنون، إذ اعتمد الأخضري على رسائل ابن العربي والرسالة القشيرية في التصوف للقشيري، كما اعتمد في هذا المجال على ثقافته الصوفية المستمدة من شيوخه، وبخاصة والده محمد الصغير[31]، وأبو عبد الله الخروبي[32] الذي تلقى على يديه الطريقة الشاذلية[33]، والطريقة الزروقية[34].

ويبدو أنّ الأخضري استمر في نهج أعلام الصوفية، ويتجلى ذلك في الجمع بين العلم والتصوف، وتعد منظومة الجوهر المكنون وكذا شرحها نموذجا حيّا لهذا التكامل، ولهذا نجد الأخضري يوظف آراء واجتهادات شيوخه في التصوف ضمن الدرس البلاغي، ومن ذلك إيراده لتسعة (9) أمثلة تتضمن موضوعات صوفية في الجوهر المكنون، ومن ذلك قوله:

كَقَوْلِنَا لِعَالِمٍ ذِي الغَفْلَة الذِّكْرُ مِفْتَاحُ بَابِ الحَضْرَة[35]

ويقول أيضا:

لَحَبَذَا طَرِيقَةُ الصُّوفِيَة تَهْدِي إلَى المَدْرَسَةِ العِلَيَة.[36]

وهكذا نجد الأخضري يطبع الدرس البلاغي بطابع خاص إذ يمزج فيه بين مباحث البلاغة ومفاهيم التصوف من حين إلى آخر، وذلك راجع إلى تكوينه الشخصي، إذ تتلمذ على يد كبار أعلام التصوف في عصره، جعله ينهل من منابع هذا العلم في مصادرها الأساسية، على غرار الرسالة القشيرية، ورسائل ابن عربي.

وعلى الرغم من أنّ التصوف بعيد نوعا ما عن الدرس البلاغي، إلا أنّ الأخضري قد وفق في توظيف مسائل التصوف في الدرس البلاغي، وذلك تسهيلا للدرس البلاغي وتقريبا لتعاطيه للناشئة؛ لأنّ المقام يفرض على الأخضري اختيار أمثلة مناسبة لواقع الطالب، ولا يجد الأخضري لذلك أحسن من المثال الصوفي، وبذلك يتجلى نجاح الأخضري في المزاوجة بين الكفاءة والأداء اللغوي انطلاقا من أمثلة محسوسة.

ومما سبق نستنتج أنّ الأخضري قد استعان بعدة مصادر ثانوية، كان لها الأثر البالغ في توضيح مسائل البلاغة وتعزيز شرحه لمتن الجوهر المكنون، الذي لقي إقبالا واسعا، ونال شهرة واسعة بين الطلبة والدارسين في المشرق والمغرب معا.

خاتمة:

ومن خلال دراسة مصادر شرح الجوهر المكنون في الثلاثة فنون تمّ التّوصل إلى أنّ الأخضري اعتمد على مصادر بلاغية قيّمة، منها ما هو قديم، ومنها ما هو معاصر، وبهذا التنوع أضفى على الدّرس البلاغي خصوصية تجانس المصادر وتكاملها، كما نهل الأخضري المادة اللغوية من منابعها الأصيلة، متمثلة في كتب النحو والمعاجم، وطعّم الدّرس البلاغي بمعارف العلوم الثانوية التي تخدم غايته، كالمنطق والتصوف.

الهوامش:

1- ينظر: شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، القاهرة، ط:8، 1983م، ص: 355.
2- ينظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
3- عبد العزيز عتيق، علم البيان، دار الآفاق العربية، القاهرة، د ط، 1424 هـ- 2004م، ص:43.
4- بقدار الطاهر، شرح الجوهر المكنون في الثلاثة فنون لعبد الرحمن الأخضري- تحقيق وتعليق ودراسة، إشراف: حبّار مختار، رسالة ماجستير، جامعة وهران، 2003-2004م، ص: 55 (مخطوط).
5- عبد الرحمن الأخضري، الجوهر المكنون في الثلاثة فنون، جمع وتصحيح: محمد خالد العطار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط:1، 1425 هـ - 2005 م، ص: 559.
6- ينظر: عبد العزيز عتيق، علم البيان، ص:37.
7- الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، مراجعة: عماد بسيوني، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط:3، د ت، ص:9.
8- السكاكي أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر، مفتاح العلوم، ضبط وتعليق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط:2، 1987م، ص:432.
9- عبد القادر حسين، المختصر في تاريخ البلاغة، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط:1، 1402هـ- 1982م، ص: 200.
10- شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص: 336.
11- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
12- ابن مالك محمد بن عبد الله، الألفية، (ضمن المجموع الكامل للمتون)، جمع وتصحيح: محمد خالد العطار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان،ط:1، 1426 هـ- 2005 م، ص: 290.
13- افتتح المنظومة البلاغية بقوله: (الحَمْدُ لِلّهِ) البَدِيعِ الهَادِي إلىَ بَيَانِ مَهْيعِ الرَّشَادِ
14- بقدار الطاهر، شرح الجوهر المكنون في الثلاثة فنون لعبد الرحمن الأخضري- تحقيق وتعليق ودراسة، ص: 197 (مخطوط).
15- المرادي بدر الدين الحسين بن علي، الجنى الداني في حروف المعاني، تحقيق: فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل،دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط:1 ،1413هـ-1992م، ص: 192.
16- ينظر: رجاء عيد، فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط:2، د ت، ص: 143 وما بعدها.
17- بقدار الطاهر، الجوهر المكنون في الثلاثة فنون لعبد الرحمن الأخضري- تحقيق وتعليق ودراسة، ص: 206.(مخطوط).
18- المصدر نفسه، صفحات: 302، 309، 309، 315، 321(مخطوط).
19- المصدر نفسه ،ص: 320 (مخطوط).
20- المصدر نفسه، ص: 116(مخطوط).
21-التائية النبوية قصيدة من بحر الطويل، تقع في ثلاثين (30) بيتا، يقول في مطلعها:
سَرَى طَيْفُ مَنْ أهْوَى فَأَرَّقْ مُهْجَتِي وَمَا كِدْتُ أنْجُو مِنْ ضَنَائِي وَعَبْرَتِي
أيَا لاَئِمِي فَي الْحُبِّ إنَّكَ جَاهِلٌ كَأَنَّكَ لاَ تَدْرِي بِشَأْنِ الْمَحَبَةِ

22- عجز البيت: وَمَا كِدْتُ أنْجُو مِن ضَنَائِي وَعَبْرَتِي.
23- بقدار الطاهر، الجوهر المكنون في الثلاثة فنون لعبد الرحمن الأخضري- تحقيق وتعليق ودراسة، ص: 318 (مخطوط).
24- القدسية: نظم في آداب السلوك، نظمها الأخضري سنة (944 ه)- وهو ابن أربع وعشرين سنة، وتحتوي هذه المنظومة على ستة وأربعين وثلاثة مئة (346) بيتا، تعرض فيها إلى مسائل التصوف وطرق مجاهدة النفس وتطهير الروح، وبيّن أوضاع مجتمعه المريض الذي تنخره الخرافات والبدع، وأوضح طرق التصوف الصحيح، توجد منها نسخة بالمكتبة الوطنية تحمل رقم (946)، ونسخة أخرى بالمكتبة السليمانية بإسطنبول تحمل رقم (3706)، وللقدسية عدة شروح منها: الشرح المسمى "الكواكب العرفانية والشوارق الأنسية في شرح ألفاظ القدسية" للحسين بن محمد السعيد الورثيلاني، والشرح المسمى "تحفة المستمع والقارئ في شرح قدسية الأخضري" للحسين بن مصباح.
25- عجز البيت: فَيَكْتَسِي مِنْ حُلَلِ النُّورِ قُوَي.
26- بقدار الطاهر، الجوهر المكنون في الثلاثة فنون لعبد الرحمن الأخضري- تحقيق وتعليق ودراسة، ص: 316 (مخطوط).
27- ينظر: أحمد الدمنهوري، رسالة في المنطق، إيضاح المبهم في معاني السلم، تحقيق وتقديم: عمر فاروق الطباع، مكتبة المعارف، بيروت، لبنان، ط:1، 1417هـ- 1996 م، ص: 35.
28- عبد الرحمن الأخضري، السلم المرونق في علم المنطق، (ضمن المجموع الكامل للمتون)، جمع وتصحيح:محمد خالد العطار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط:1، 1425هـ- 2005 م، ص: 257.
29- بقدار الطاهر، الجوهر المكنون في الثلاثة فنون لعبد الرحمن الأخضري- تحقيق وتعليق ودراسة، ص: 168-169 (مخطوط).
30- ينظر: عبد العزيز عتيق، علم البيان، ص: 24.
31- كان والده - محمد الصغير- عالما في عصره؛ فهو أحد تلاميذ أحمد زرّوق، أخذ عنه الأخضري مبادئ علم الحساب والفرائض مشافهة.
32- لقد أثّر أبو عبد الله محمد بن علي الخروبي (ت 963 هـ) في شخصية الأخضري تأثيرا كبيرا؛ إذ برز علم الخروبي من خلال أعمال تلميذه الأخضري، وفي هذا يقول أبو القاسم سعد الله:"لو لم يكن للخروبي من التلاميذ غير عبد الرحمن الأخضري لكفاه"، ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د ط، 1985م، ج1، ص:507.
33- نسبة إلى أبي الحسن الشاذلي (ت 656 هـ) من أكبر علماء التصوف، ولد بالمغرب، واستقر بتونس، وتوفي بمصر، للتوسع ينظر: مأمون غريب، أبو الحسن الشاذلي (حياته- تصوفه- تلاميذه وأوراده)، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط:1، 2000م، ص: 13 وما بعدها.
34- نسبة إلى أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي أبو العباس زرّوق (ت 899هـ)، ولد بفاس، وزار مدينة قسنطينة، وتوفي بليبيا، ينظر: الزّركلي خير الدين، الأعلام لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط:15، 2002م، ج: 1، ص:91.
35- عبد الرحمن الأخضري، الجوهر المكنون في الثلاثة فنون، ص: 560.
36 - عبد الرحمن الأخضري، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.